

دمية القصر

قلت : ولَعَمري إنه لم يقصّر في هذا المعنى قلماً ولساناً حيث وضع بإزاره إساءته إلى السؤال إحساناً يُعفّي على ذنبه وجعل بحذاء الجُرم عذراً يُسوِّغ الاحتمال في جنبه . وجرت بيني وبين الشيخ أبي عامر الجُرْجاني مناشدة لِمَا قيل في أوصاف المَساويك ومذاكرة فيما انشعبت إليه الخواطرُ في اختلاف معانيها . فأُنشدني لبعضهم ثم قال وأظنّه لبشار بن برد :

ماذا عليك دُفنتُ قبلك في الثرى ... من أنْ أكون خليفة المِسواك .
أيجوز ويحك أنْ يكونَ متيّّماً ... في القَدَر عندك دون عودِ أراك .
واستملحتُ تمنّيه خلافة المِسواك عَيمةً منه إلى ارتفاع ريقه وطمأً إلى ارتشاف درّه المغروس في عقيقه . وأنشدني الشيخ أبو محمد الحمداني قال : أنشدني أبو الجوائز لنفسه :

واعتنقنا ضَمّاً يذوبُ حصى اليا ... قوت منه وتَطْمئنُّ الذُّهُودُ .
ثم هبّت رُويحةُ الفجر والكا ... شحُّ ناءٍ والعاذلات رُقود .
كلّما نمّ للفُصول سوارٌ ... كذبته قلائدٌ وعقود .
قلن : وكنت أسمع قول ابن هـندو : .
تعانقنا لتوديع عَشِيٍّ ... وقد شرقتْ بأدمعها الحِداقُ .
فما زال العناقُ يضيقُ حتى ... تشكّكنّا ؛ عِناقُ أو خناق .
فأعجب به وأتعجّب منه مع استبشاع لفظة الخناق عند ذكر العناق تطيُّراً منه حتى جاء أبو الجوائز في صفة الضَمِّ بالأكمل الأتمّ وهو قوله : وتطمئنّ النهود . فإنّ جميع ما قيل قبله على التقصير عنهما شُهود .

وقد اتّفقَ لي في معناه ما لا أحسبُني سُبِقتُ إليه من قصدية وهو : .
واتفاق حَسَنِ أَلْ ... لَفَ شَملاً قد تَبَدّد .
واعتناق ضيقٍ يُؤو ... هِمُك المزوج مُفرد .
وأما قوله : يذوب حصى الياقوت فيه فمعنى حسن لا يكاد يتأخّر عنه قول ابن هـندو : .
ولمّا أنْ تعانقنا سَحَقْنَا ... عقود الدُّرِّ من ضيقِ العِناق .
فالأول ذوبٌ تتداوب فيه الأمانى والثاني سحقٌ تتساقط عليه الغواني . وله أيضاً C : .
أحبتُّها حَبَشِيَّةً بجَبينها ... شَرطُ يُضاعف شرط كلّ مُتَيّماً .
تقضي فينقاد القُضاة لحُكمها ... طَوَعاً وتفتكُ بالكَميِّ المَقْدَم .

ومنَ الدليل على الشجاعة للفتى ... أثرُ الجراحِ بوجهه والمقدّم .

وأنشدني الشيخ أبو عامر الجرجاني له :

أَمِنْ تَبْرِيزَ شَارِفَنِي خَيَالُ ... وَأَصْحَابِي بِكَاطِمَةٍ هُجُودُ .

ضعيف المتّـن لا يثنيه واشٍ ... يراصده ولا يعنيه بيد .

بَعَثْتُ إِلَيْهِ خَالِصَتِي فَدَقَّاتُ ... بِهِ مِنْهَا مَضْبَرَةٌ وَخُودُ .

تَرَامَاهُ الْأَمَاعِزُ وَالْفَيَافِي ... وَتَلَفْظُهُ التَّهَائِمُ وَالذُّجُودُ .

وَيَنْهَى الْبَيْضَ أَنْ يَسْلُبَنَّ قَرْنِي ... ذَوَائِبُ تَسْتَثِيرُ الْوَجْدَ سَوْدُ .

تَنْظَرُ زَوْرَتِي خَوْدَ لَعُوبٍ ... وَتَحْذَرُ نَفَرَتِي هَيْفَاءَ رُودُ .

وَكَمْ سَمَحْتُ صَدُوفُ وَلَا رَقِيبُ ... يُحَرِّمُ ضَمَّهَا إِلَّا الذُّهُودُ .

قلت : ما زالت الشعراء يعدّون نفحَ الطيب من الوُشاة وجرسَ الحَلَاي من الرُّقُباء
فنهّدَ أبو الجوائز إلى الذُّهُود وعدّـه من المحذور وزاد به نغمةً في الطنبور . وفي
هذه القصيدة يقول :

وَأُطْلِقُ فِي رَحَابِ الْمَجْدِ عَزْمًا ... لَهُ مِنْ صُنْعِ أَخْلَاقِي قِيودُ .

إِذَا مَا أُخْلِقْتُ أَبْرَادُ حَالِي ... فَيُرْدُ الصَّبْرُ يَا أَبَايَ جَدِيدُ .

فَوَيْلٌ لِمَنْ الْمَكَارِمُ مِنْ زَمَانٍ ... لئِمٍ وَعُدَّه فِينَا وَعَيدُ .

تَفَانَتْ أَنْفُسُ الْأَحْيَاءِ حَتَّى ... غَدَاوا وَلُحُومُهُمْ لَهُمُ لُحُودُ .

وَأَبْطَالُ إِذَا شَرَعُوا الْعَوَالِي ... فَلَيْسَ وَرُودَهَا إِلَّا الْوَرِيدُ .

هُمُ الْبَيْضُ الْقَوَاطِعُ حِينَ يُمْسِي ... لَهُمْ مِنْ نَسَجِ خَيْلِهِمْ عَمُودُ .

بَنَوْا حَرْبَ لَهُمْ عِلَاقُ الْأَعَادِي ... رِضَاعُ وَالسُّرُوجُ لَهُمْ مُهُودُ .

وَلَمْ يَبْرَحْ عَلَى الصَّهَوَاتِ مِنْهُمْ ... قِيَامُ بِالْعُلَا وَهُمْ قُعودُ .

وأنشدني أيضاً له :